

سائرة الماضي :

زيارة لحصن الأكراد (*)

أب وحرب

للأستاذ أحمد رمزي بك



١ - زيارة حصن الأكراد قصة لا بأس من إيرادها على سبيل النكاهة كدخول لهذا الحديث ، فقد سبقها زيارة لحصن آخر هو قلعة مدينة طرابلس . ولم يكن لدى برنامج موضوع لزيارة القلاع والحصون التي أنشأها الصليبيون أو احتلوها بالشرق ، وإنما جاءت الزيارتان وليدتي المصادفة . وإليكم ما دفع إليهما .

٢ - حينما جاء الجنرال جورو الفرنسي إلى مدينة طرابلس عقب احتلال فرنسا للبلاد بعد جلاء الجيوش البريطانية عنها ، استقبل في قلعتها استقبالا غريباً ، فقد تلقاه جماعة من جنوده ، وقد لبسوا لباس فرسان الهيكل Templier ومقابلة الاستتار Hospitalliers . ومعنى هذا الاستقبال مظاهرة صليبية بعد سبعمائة سنة من انتهاء هذه الحروب . وخطب الجنرال وأظهر سروره باسترجاع فرنسا لمقل من معقل الصليبيين . وقد عد هذا العمل من أخطاء جورو التي سجلت عليه ، لأن فرنسا لم تفتح هذه البلاد بجيوشها حتى تحتفل باسترجاع حصن تزع منها . ثم إن عقلاء الفرنسيين أشاروا بحجة إلى أن هذه الحروب كانت حرباً عامة اشترك فيها الفرنسيون وغيرهم من الألمان والإنجليز . وكانت نهاية الحروب خروج الصليبيين بعد هزيمتهم ، فليس من الحكمة في شيء أن تلصق هذه الحروب وتناججها بالشعب الفرنسي وحده .

٣ - كان قد مضى أكثر من عشرين عاماً على هذه

(*) نص المحاضرة التي ألقاها الأستاذ أحمد رمزي بك المثل السياسي لمصر بسورية ولبنان من ٣٩ - ١٩٤٤ عن زيارته لقلعة حصن الأكراد بسورية في نادي خريجي جامعات فرنسا وسويسرا وبلجيكا في مساء يوم الجمعة ١٦ إبريل ١٩٤٨

الحوادث حينما زرت مدينة طرابلس ، فإذا بأهل المدينة يتحدثون عنها ، وكأنها حصلت من أيام . لله در الجنرال جورو ! لقد كان أهل طرابلس رجال رباط ومثابرة منذ القدم ، فإذا هو يذكركم بماضيتهم ، وإذا هم من جديد من المرابطين المشاغرين الذين لم يفقدوا شيئاً من حماسة آبائهم وأجدادهم ، وكان أن تحدتنا في موضوع مدينة طرابلس وكيف دخلتها جيوش الملك المنصور سيف الدين قلاوون وانزعمتها من أسراء الصليبيين ؛ وتحمس الجمع نفرجنا إلى قلعة طرابلس ، وقرأنا الكتابة التي سجلها الفاتح على باب القلعة : وكان أثر هذا الاستقبال الفرنسي أن أوجد وعياً قومياً وحماساً في قلوبنا .

٤ - وأمضينا سهرة حول فتح طرابلس وسير حملتها ، فإذا بالحديث يتناول قلعة الحصن أو حصن الأكراد وهي التي قامت منها الحملة التي استولت على طرابلس ، وكان أن تقررت زيارتنا للحصن المعتمد في يوم من أيام عام ١٩٤١ حينما كانت الحرب المالية الثانية في أشد أحوالها وطأة : فقمنا في أكثر من ست سيارات على طريق حصن ، وما كدنا نترك محطة تلو كلخ حتى ظهرت لنا القلعة العظيمة بأبراجها تطل علينا من فوق رابية لا يقل ارتفاعها عن ستمائة وخمسين متراً عن سطح البحر ، وهي في صحتها وعظمتها توحى إلى الناظر إليها بأنها تتحدى الأجيال . فكانت الزيارة الأولى جاءت من وحي الاستقبال الفرنسي ، وأنت زيارة حصن الأكراد نتيجة لما لمسناه ورأيناه عند زيارة قلعة طرابلس : كان كل هذا بشير قصد معين .

٦ - وتمت هذه الزيارة في يوم بأكله . فقد صعدت بنا السيارات إلى قمة هذا المرتفع ، ورأينا الأراضي الحصينة التي كان يسيطر عليها أصحاب الحصن ، وظهر لنا البحر من بين المرتفعات : ورأينا كيف كان أهل الحصون يتخاطرون بالنيران الموقدة . وحينما نزلنا من السيارات وأتجهنا إلى باب الحصن أخذتنا الرهبة لدى قراءة ما كتب بالخط النسخ الجميل من مثال المصور المملوكية القديمة في مصر . فأخذنا نحاول القراءة ، فأنى إلينا من باع لسكل منا بطاقة قد صورت عليها الكتابة الخالدة :

٧ - بسم الله الرحمن الرحيم ، أمر بتجديد هذا الحصن المبارك ، في دولة مولانا الملك السلطان الملك الظاهر العالم العادل

عقولهم وأذهانهم من دوافع قد تلازمهم مدة طويلة من الزمن ،
وتدفعهم إلى عمل أشياء نافعة أحياناً .

١٢ - وإني أتشرف بأنى من هؤلاء الذين يؤمنون بأن

التاريخ والآثار وكثيراً من محاسن هذه الدنيا ، هي حياة
ما دامت تؤثر فينا وتجعلنا نشعر بشعور معين ، وتحت إجماع هذا
الشعور نقوم بإتمام عمل من الأعمال النافعة المفيدة . وأعترف
بأنى مدين لزيارتى حصن الأكراد بشيء كبير من هذا الإجماع
الذى لازمتى مدة طويلة ونفخ فى روحى حماساً ، للتعرف على
أشياء ، والإيمان بصورة كانت فى تخيلتى قائمة يحيط بها الكثير
من الضباب . فأخذت أتحين الفرص لزيادة معلوماتى عنها
وشغل أوقات الفراغ فى تعرف هذه الأيام والكشف عما وراء
الحجب من أشياء قد تكون معلومة لأهل الاختصاص ، ولكنها
كانت على كل حال مجهولة لى .

١٣ - لا بد أنكم اشتقتم إلى التعرف على هذه القلعة

السورية ، والتي أمضيت كل هذه المدة دون تحديد موقعها ،
والتحدث إليكم عنها بعد أن طال حديثى عن مقدمات هذه
الزيارة . ولذا أنقل إليكم ما كتبه الأستاذ الجليل محمد كرد على ،
صاحب خطط الشام إذ قال : قلعة الحصن ، أو حصن الأكراد
أو الكرك Crae des Chevatiers ولا تزال محفوظة منذ
عهد الصليبيين على ما هي عليه ، وهى آية فى باب الهندسة العسكرية
فى القرون الوسطى ناطقة بلسان حالها بأن هؤلاء نزلوا الأرضى
القدسة .

١٤ - قال : فلنتظر يمدد إلى ياقوت الحموى صاحب معجم

البلدان فقد كتب : منذ أكثر من سبعمائة عام حصن الأكراد
هو حصن منبج ، حصين على الجبل الذى يقابل حصن من جهة
القرب وهو المتصل بجبل لبنان ، وكان بعض أمراء الشام
قد بنى فى موضعه برجاً ، وجعل فيه قوماً من الأكراد
كطليعة بينه وبين الفرنج وأجرى لهم أرزاقاً ، فخافوا على أنفسهم
فجعلوا يحصنون هذا البرج إلى أن صار قلعة حصينة ، منعت
الفرنج من كثير من غاراتهم فنازلوه ، فباعه الأكراد وزحوا
لبلادهم ، وملكه الفرنج وهو فى أيديهم إلى هذه النجاية (أى إلى

المجاهد الرباط ... ركن الدنيا والدين أبو الفتوح بيبرس تميم
أمير المؤمنين ، وذلك بتاريخ يوم الثلاثاء خامس وعشرين من
شعبان سنة ٦٦٩ .

٨ - لا أخفى عنكم أنها كانت وكأنها نفحة من نفحات
مصر تستقبلنا . أما أنا فقد كنت مريع الخلقى ، أفقر ذات
اليمين وذات اليسار ، كنت أرى الحصن بأبوابه وأبراجه وأسواره
وطبقاته وكأنه قطعة من بلادنا .

وسعدت على الدرج وقلت من هنا صمد أبو الفتوح بجنده
وأمرائه ، ومررت إلى الرحبة الأولى فإذا الحصن الثانى له روعة
أكبر من الروعة التى راها الإنسان للباب الأول : ومن هذا المدخل
يصعد الداخل إلى مكان القيادة ، فرأيت كيف أبقى الزمن آثار
أقدام الحرس ، وحيث موضع الرماح التى كان يحملها النياذة
كنت أراها على يمين الداخل وشماله حتى صعدنا إلى الأماكن
العالية : حيث كانت حجرات الرئيس ومائدته ومكان عبادته .

٩ - هذه هى النظرة الأولى لهذه الزيارة ، وقد جعلتها
موضوع حديثى الليلية ، فلا تنتظروا منى أن أحدثكم حديث
العالم فى فن هندسة التحصين وعمارة القلاع قديمها وحديثها ،
ولأن تسموا منى حديثاً فى التاريخ وعلم الآثار ، وإنما حديثى
الليلية هو حديث رجل مرَّ بحصن من حصون القرون الوسطى
فأخذته روعة المكان ، وغمرته ذكريات عن بلاده وهو بعيد
عنها ، فإذا به ينادى هذه الحجارة القائمة ، ويحدثها ويسمى إلى
منادمة الماضى سميحاً قد يجمل هذا السكان بيوح بسره وينطق
بما كان عليه من أجماد القرون الماضية .

١٥ - فالمعلومات التى أقدمها لم أحاول جمعها على طريقة
علمية منطقية بالبطاقات ، ولم تكن نتيجة خطة معينة ، أو بحث
قصدت به أن أقف بينكم اليوم لأنقله إليكم ، وإنما هى نتيجة
مطالعات متفرقة فى أوقات متباعدة ، وهذه المطالعات آثارها
زيارتى لهذا الأثر ورغبتي فى إشباع نفسى منه .

١١ - فهناك فريق من الناس يؤمنون بأن قيمة بعض
الأشياء هي فى مقدار ما تثيره فى أنفسهم من اقتباه أو وعى أو رغبة
فى الاستراحة من التعرف إليها ، ثم فيما تتركه هذه الأشياء فى

من آثارهم القاعة الكبرى ومسكن رئيس الفرسان - Logis du Maître وغير ذلك . وقد تسلموا الحصن من أمير مقاطعة طرابلس لوجود الحصن على الحدود .

١٨ - وكانت القواعد المتبعة أن يقسم جماعة الاستبار ، أو الهيكلين على الدفاع حتى الموت ، ولا ينفون من قسمهم إلا بأمر أعلا من عميد الهيئة (Le Grand Maître) فكانوا أهل رباط يتقربون إلى الله بقتال المسلمين بغير هوادة ، وكانوا يعتبرون من مات في قتال الإسلام شهيداً ، ومن عواندهم (التي أخذوها عن المسلمين وأهل المشرق) اطعام أربعين مسكيناً لمدة أربعين يوماً ، وإخراج زكاة العشر للفقراء عن جميع المحاصيل ، بل فرضوا على أنفسهم إخراج رغيف عن كل عشرة أرغفة تخبز في مطابخهم .

١٩ - وكانت المنافسة على أشدها بين المنظمين ، بل كانت تنتهي أحياناً إلى الدماء المفتوح ، وفي منطقة حصن الأكراد كانت قلاع صافيتا وطرطوس في يد الهيكلين .

٢٠ - وللمنظمين تاريخ طويل في الحروب الصليبية ، ويبرز اسم عميد كل منهما في كثير من الحوادث ، وفي توجيه سياسة الإمارات اللاتينية . ولذا أفرد المؤرخون المؤلفات الطويلة للتحدث عنهم .

٢١ - وبهنا من أسهم ما كان لهم من السلطان في حصن الأكراد ، فقد ذكر صاحب كتاب - Les Hospitaliers en Terre Sainte كشافاً بأسماء من تولوا وظائف كبرى من الاستبار بحسن الأكراد ابتداء من ١١٦٥ إلى ١٢٦٧ وخصوصاً الممداء nes Chatelais ذكر من بينهم . Pierre de Mirmandi ' Raymond de Pignani Arnaud de Mon-thrn . ويؤكد الكثيرون أن رفاقهم لا يزالون في أقبية الكنيسة التي كانت بالحصن .

ولقد رأيت في متحف الحصن مجموعة من الجناح البشرية ، وعليها آثار ضربات السيوف ، فهل هي لقوم الاستبار أم لجماعة من المسلمين ؟ هذا ما يقف التاريخ حائراً أمامه .

عهد ياقوت الحوى) وبينه وبين حصن يوم واحد ، ولا يستطيع صاحب حصن أن يتزعه من أيديهم .

ثم اختلط عليه الأمر فجاء بذكر الدواية في حصن الأكراد ويقصد فئة الاستبار أصحاب الحصن فقال عنهم : هم قوم من الفرنج يحبسون أنفسهم لقتال المسلمين ويمنعون أنفسهم عن النكاح - يقصد إيمانهم بالرهينة - ولهم أموال وسلاح ويتعاطون القوة ويمالجون السلاح ولا طاعة لأحد عليهم . انتهى كلامه .

١٥ - وهذا رأى لكاتب عربي قيل استعادة الحصن من أيدي الصليبيين : وبهنا قبل الانتقال من هذا التمرير أن نصصح لياقوت ؛ فأصحاب الحصن هم جماعة الاستبار لا الدواية .

١٦ - والاستبار هم Les Hospitaliers والدواية هم الهيكلون نسبة إلى هيكل سليمان أو المبد Les Templiers وهما منظمتان صليبيتان ، كان الفرض الأساسي من تأليفهما مد يد المساعدة لرواد الأراضي المقدسة الذين تنقطع مواردهم ، أو يقدم المرض ، ومن هنا تفهم كلمة Hisplar ثم أتى عليهما واجب حماية الحاج .

ثم انتهى الأمر بهما إن أن أصبحتا قوتين عسكريتين منظمتين لمحاربة المسلمين . وقد حصلت كاتهما على حق احتلال القلاع والحصون ، وعلى حق إدارة المقاطعات وفرض الضرائب ، وعلى حق عقد المعاهدات والهدنة والصلح . فأصبحت كل منظمة - حكومة داخل حكومات الصليبيين ، ووصل عدد المنتظمين لهاتين المنظمتين إلى ١٥٠٠٠ مقاتل ، وكانوا على ثلاثة أصناف :

١ - الفرسان : من طبقة النبلاء من مختلف شعوب أوروبا وهم الذين يتولون مناصب الشرف الكبرى .

٢ - الضباط : ويمكن أن يلحق بهم أبناء الطبقات الوسطى .

٣ - الكتاب : ويتولون وظائف الكتابة والأعمال الدينية الثانوية .

١٧ - وكان حصن الأكراد ممثلاً من مآكل الاستبار :

وهم الذين زادوا على أسواره وبنوا الأبراج العالية . وأهم ما بقى